أولا: مدخـــل

مفهوم البيئة

لقد اختلفت الأدبيات في تحديد مصطلح البيئة، ولعل ذلك يرجع إلى وجهات النظر التي تستند اليها هذه الأدبيات، فالأدبيات التي تستند إلى وجهة النظر النفسية تحدد المصطلح على أساس نفسي وحسب، وتلك التي تستند إلى وجهة النظر الاجتماعية تحدده على أساس اجتماعي، والأدبيات التي تستند إلى وجهة النظر الجغرافية تحدده على أساس جغرافي، وهكذا بالنسبة للأدبيات الأخرى التي تستند إلى وجهات نظر معينة.

وفي هذا الصدد، نشير إلى عدد من التعريفات التي تبين معني المصطلح، طبقًا لوجهة نظر معينة. ترى وجهة النظر النفسية، أن البيئة عبارة عن "المجموع الكلي للمؤثرات التي يتلقاها الفرد من بداءة وجوده في الرحم حتى مماته"[١].

إن المتمعِّن لهذا التعريف، يجد أن البيئة لم تتحدد على وجه الدقة، بيد أنه اكتفى بالإشارة إلى أنها عبارة عن تنبيهات يتعرض لها الإنسان ابتداء من لحظة وجوده في الرحم، مرورًا بولادته ومجيئه إلى بيئة جديدة وانتهاءً برحيله عن الدنيا .

وإذن: فإن البيئة من وجهة النظر النفسية عبارة عن تنبيهات مختلفة في النوعية تستدعي استجابات معينة .

وهناك وجهة النظر الأيكولوجية، إذ ترى أن البيئة هي ذلك "الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، يتأثر به ويؤثر فيه. هذا الوسط أو المجال قد يتسع ليشمل منطقة كبيرة جدًّا، وقد تضيق دائرته ليشمل منطقة صغيرة جدًّا لا تتعدى رقعة البيت الذي يسكن فيه. بعبارة أخري تشمل البيئة

السماء التي فوقنا، والأرض التي تحت أقدمنا إنها كل الكائنات الحية: نباتية كانت، أم حيوانية تؤثر فينا ونؤثر فيها، إنها كل ما تخبرنا به حاسة: السمع والبصر والشم والتذوق واللمس سواء كان هذا من صنع الطبيعة أو من صنع الإنسان"(٢).

إذا نحن أمعنا النظر في هذا التعريف وجدنا:

١- أن البيئة عبارة عن وسط مكاني يصلح لمعيشة الإنسان، إذ يؤثر فيه تارة ويتأثر به تارة أخرى، وإن هذا الوسط، لا يخص الإنسان وحده فحسب، وإنما تشاركه فيه كائنات حية حيوانية ونباتية هذه الكائنات يؤثر فيها ويتأثر بها.

٢- ويمضي التعريف في البيئة في تحديده للبيئة بالإشارة إلى أن هذا الوسط، قد يكون واسعًا جدًّا؛ إذ يشتمل علي السماء والأرض، وقد يكون ضيقًا جدًّا كالمنزل الذي يسكن فيه الإنسان.

٣- والبيئة من وجهة النظر هذه، لا تقتصر علي ما ألفناه من وسط مكاني فحسب، وإنما تشتمل على الأوساط التي يمكن إدراكها عن طريق الحواس الخمس.

وهناك وجهه نظر ثالثة، إذ ترى أن البيئة هي عبارة عن: " عوامل طبيعية تحيط بالإنسان، هذه العوامل تشتمل على: الأرض والماء والمناخ والصوت والروائح والذوق، والعوامل البيولوجية المرتبطة بالحيوانات، والنباتات، والعوامل الاجتماعية الجمالية"(٣).

إن ما يميز هذا التعريف عن التعريف السالف الذكر: أن البيئة لا ينظر إليها هنا على أنها تركيب من العوامل الطبيعية والبيولوجية فحسب، وإنما ينظر إليها إلى جانب ذلك كله، أنها تركيب من العوامل الاجتماعية، ونعني بالعوامل الاجتماعية هنا أساليب التفاعل الحادثة بين الأفراد.

ومن التعريفات المارة الذكر، نخلص إلى القول: أن البيئة عبارة عن وسط مكاني، يتجسد في شكل طبيعي، أو شكل اجتماعي، إذ يشترك في استيطانه كل من الإنسان والكائنات الحية، وقد ينجم عن استعماله، آثارٌ إيجابية أو سلبية.

أنواع البيئات

لقد توصلنا من خلال التعريفات الأنفة الذكر إلى نوعين من البيئات هما:

١- البيئة الطبيعية.
٢- البيئة البشرية.

وبقدر تعلق الأمر بالنوع الأول، نقول: إن البيئة الطبيعية هي تلك البيئة التي تشتمل علي العوامل الطبيعية التي تكون من قبيل: الهواء والماء والتضاريس والمناخ.

وقد تقسَّم هذه البيئة بدورها إلى عدد من البيئات، استنادًا إلى العوامل الطبيعية فعلي سبيل المثال: تقسم البيئة الطبيعية إلى عدد من البيئات في حال الاعتماد على عامل الماء، إذ سنجد ثمة بيئات مائية متمثلة في البحار والمحيطات والأنهار والمسطحات المائية الأخرى.

وإذا أخذنا عامل التضاريس؛ سنجد أن هناك بيئات مرتفعة، كما هو الحال في الجبال، وبيئات منبسطة كما هو الحال في السهول. وكذا الحال مع عامل المناخ، فقد تقسم البيئة الطبيعية إلى عدد من البيئات طبقًا للمناخ السائد؛ إذ ستكون هناك بيئات يغلب عليها المناخ الحار، وبيئات يغلب عليها المناخ البارد، وهناك بيئات ثالثة يغلب عليها الاعتدال في المناخ، ورابعة يغلب عليها المناخ المتجمد كما هو الحال في المناطق القطبية.

من ذلك يتضح أن البيئة الطبيعية هي تلك البيئة المحددة بالعوامل

الطبيعية حصرًا. أما بصدد النوع الثاني المتعلق بالبيئة البشرية، نقول: إن البيئة البشرية، هي تلك البيئة المخصصة للإنسان فحسب، إذ يمارس فيها نشاطات معينة بهدف تحقيق منجزات معينة، ويلاحظ علي هذه البيئة غلبة الطابع الاجتماعي الإنساني على محتوياتها كافة؛ ذلك الطابع الذي يعود مردوده على الإنسان نفسه بمعنى أن ثمة علاقات اجتماعية تسود بين الأفراد داخل هذه البيئة إلى جانب وجود عدد من القواعد الاجتماعية التي تنظم العلاقات بينهم.

إن مما يجب الإشارة إليه في هذا الصدد أن البيئة البشرية من الممكن أن تقسم إلى عدد من البيئات استنادًا إلى العوامل الاجتماعية. فعلى سبيل المثال: تقسم البيئة البشرية إلى ثلاث بيئات اعتمادًا على مؤشر المستوي الاجتماعي-الاقتصادي: إذ ستكون هناك بيئات فقيرة، وبيئات متوسطة، وبيئات راقية.

وإذا اعتمدنا على مؤشر المناخ الأسرى سنجد أن هناك بيئات تتسم بالاستقرار والدفء الأسري، وبيئات أخرى تتسم بالاضطراب الأسري، وإذا اعتمدنا على مؤشر مستوى التعلم، سنجد أن هناك بيئات متعددة، تأتي في طليعة هذه البيئات من حيث مستوى التعلم، البيئة الجامعية ثم المدرسة الثانوية فالمتوسطة، وأخيرًا المدرسة الابتدائية؛ إذ تقتصر مهمتها المعرفية على الإلمام بعموميات المعرفة فحسب. وهكذا بالنسبة لبقية البيئات البشرية الأخرى، إذ تقسم إلى عدد من البيئات، استنادًا إلى بضعة مؤشرات اجتماعية.